جامعــة سيــدي محمــد بن عبـــد الله
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز- فاس
شعبـــة اللغة الإسبانيــة وآدابها
مسلك الدراسات الإسبانيــة
الفصل الثاني

الشعر في الأندلس ابن زيدون نموذجا

إعداد: الدكتور إدريس الذهبي

السنة الجامعية:
1440-1441 هـ
2019 - 2020 م

1- توطئـة :

إن شغف الأندلسيين بالطبيعة منحهم خيالا جميلا، وتشابيه عذبة، فكانتت الرقة والنعومة ميزة أشعارهم، والفضل في ذلك للأندلس، وما لربوعها من تأثير في نفوسهم، حتى كان حبهم لها عبادة، قال ابن خفاجة :

يا أهل أندلس لله دركـم، ماء، وظل، وأشجار، وأنـهار !
ما جنة الخلد إلا في دياركم، ولو تخيرت، هذا كنت أختار !

وكان للأندلس وطبيعتها القسط الأوفر في موشحاتهم الشهيرة.

* نظرة عامة عن الشعر الأندلسي وروافده :

أ- أهمية الشعر عند الإنسان العربي :

لقد شكل الشعر رافدا مهما في تشكيل الهوية الثقافية للإنسان العربي منذ العصر الجاهلي، حيث كان الإنسان مولعا بنظم الشعر، ليدون من خلاله أيامه وبطولاته وهواجسه، ويحكي فيه عن علاقاته بالأرض والناس والتاريخ. فشكلت القصيدة ذاك المعبر عن الحياة العامة للإنسان الجاهلي، هدف من خلالها الإنسان العربي إلى تخليد مفاخر قبيلته، وأمجاد أجداده، فارتبط الجاهلي بالشعر حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن : "لا تدع العربي الشعر حتى تدع الإبل حنينها"[1].

وظل الإنسان العربي يحافظ على علاقته بالشعر عبر تطور هذا الإنسان في العصور الإسلامية الأموية والعباسية، بل وحتى في انتشاره في مناطق بعيدة عن الجزيرة العربية بعد الفتوحات الإسلامية، كما هو الحال بالنسبة للأندلس التي سيحتل مكانة لدى أصلها، وهذا يشير إليه المقري حيث يقول : "والشعر عندهم له حظ عظيم، والشعراء من ملوكهم وجاهة ولهم عليه حظ ووظائف[2]".

والشعر في بلاد الأندلس ظاهرة وطنية بامتياز، حيث لم يكن وقفا على الشعراء فحسب، بل كان في متناول السواد الأعظم من أهل البلاد، فبرعوا في نظمه إلى حد الإجادة رغم كونهم ليسوا شعراء، يقول القزويني موضحا هذه الفكرة : "إن أي فلاح يحرث بأثوار في شب يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من المعاني"[3].

ونظرا للأهمية التي كان يوليها الملوك للشعر والشعراء الذين كانوا يتقلدون مناصب مختلفة في الدولة من أهمها منصب الوزارة، والسفارة، عني بالشعر، وعظم شأنه، وازدهرت الثقافة والأدب بصفة عامة، وأصبح الشعراء يعيشون حياة مترفة، خصوصا شعراء البلاط، إلا أن هذا لم ينطبق على جميع الشعراء حيث ظل بعضهم مغمورا، لعدم استطاعتهم التقرب من السلطان.

---

[1]- د.عبد العزيز عتيق "الأدب العربي في الأندلس" دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت، سنة 1976، ط2، ص160.
[2]- د. سامي مكي العاني "دراسات في الأدب الأندلسي" الجامعة المستنمدرية ، سنة 1978، ص110.
[3]- إميليو غارسيا غومس "الشعر الأندلسي" ترجمة حسين مؤنس، بإشراف إدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم بمصر، ص46.

لقد عرف سوق الشعر رواجا كبيرا –لاسيما في عصر ملوك الطوائف– حيث استطاع الشعر أن يفرض وجوده، ويتغلغل في مختلف طبقات الشعب الأندلسي، على اختلاف أهوائهم ومشاربهم.

ب– الشعر الأندلسي بين التجديد والتقليد :

وقف طائفة من الدارسين حيال الشعر الأندلسي، مواقف مختلفة، فمنهم من يرى بأن الشعر الأندلسي صورة مطابقة لنظيره في المشرق، ومنهم من يخالف هذا الاتجاه، فابن بسام مثلا صاحب كتاب "الدخيرة" يرى بأن الأندلسيين مقلدون لشعراء المشرق غير مستقلين عنهم بطابع خاص، أو سمات مميزة يقول : "إلا أن أهل الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المختارة رجوع الحديث إلى قتادة حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو ظن بأقصى الشام والعراق ذباب – لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما"[4]. أما الدكتور شوقي ضيف فيرى بأن "الأندلسيين يستعيرون من المشرق موضوعات شعرهم ومعانيه وصوره وأساليبه، و"يضيف" أيضا بأن الأندلسيين انتهوا إلى التقليد وارتضوه لأنفسهم[5].

أما المستشرق الإسباني غارسيا غومس فيرى "أن الشعر الأندلسي – فيما خلا بضع شواذ – فقير جدا من الناحية الذهنية التفكيرية، ومن دلائل ذلك، أن الناحية التي تأثروا بها من المتنبي كانت ناحية البراعة لا ناحية التفكير"[6].

وعليه؛ أن الشعر الأندلسي لا يرقى في معانيه إلى المستوى الشعر العباسي، وأن الأندلسيين – خصوصا في عمر ملوك الطوائف – كانوا ينهلون روافدهم الثقافية من المشرق، فيحاكون روائعه، ويقتبسون منه صورهم ومعانيهم الشعرية، لكن ذلك ليس عيبا، كما يرى شوقي ضيف أوابن بسام وغيرهم، لأن الأندلسيين عندما ينقلون عن المشرق يكون ذلك دليلا على حيويتهم، ولو أنهم لم ينقلوا شيئا لدل ذلك على جمودهم وانعزالهم التي تتنافى مع الحيوية التي توصف بها الشعوب الناهضة، والحضارة المتطورة التي تتفاعل مع غيرها من الحضارات"[7]. كما أن ظاهرة التقليد هاته، ربما تكمن في الشكل ممثلا في تقاليد القصيدة العربية القديمة، أما مضمون شعرهم فيغلب عليه طابع الحضارة والتجديد، وفيه تتجلى شخصية الأندلس بارزة واضحة.

ولا تعتبر الاستفادة من التراث الأدبي العربي عيبا أدبيا، أو نقلا وتقليدا فقط، بل العكس، فالعودة إلى التراث دليل قاطع على الرغبة في المحافظة عليه، وربما التوسع فيه بطريقة جديدة ومتطورة حسب التطور الحاصل في البيئة، يقول د.جودت الركابي في كتابه في الأدب الأندلسي : "فعودتنا إلى آثارنا القديمة : إلى الشعر الجاهلي والأموي والعباسي، إلى هذا الأدب الإنساني الواسع، دليل على رغبتنا في المحافظة على إنسانيتنا الأدبية، والأدب الأندلسي كأي أدب إنساني أخذ يتطلع إلى هذا التراث القديم، ويغذي فكره الإنساني بالشعر

---

[4]- سعد اسماعيل شلبي "دراسات أدبية في الشعر الأندلسي" دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، سنة 1983،، ص67.

[5]- د. شوقي ضيف "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" دار المعارف بمصر، ط9، ص438.

[6]- إميليو غارسيا غومس "الشعر الأندلسي" مرجع سابق، ص6.

[7]- د. سعد اسماعيل شلبي "دراسات أدبية في الشعر الأندلسي" دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، سنة 1983، ص13.

القديم، وشعر صدر الإسلام، وشعرالمحدثين وآدابهم، وإذا فهمنا الإنسانية بمعناها الفني هذا، حق لنا أن نقول : إن كل عربي سواء كان شرقيا أم أندلسيا، كان يرمي إلى هذه النزعة الإنسانية في آثاره، ودراسته، وقراءاته، إذا أراد لإنتاجه ولفنه النجاح"[8].

إن الشعر الأندلسي كما يقول الدكتور سعد اسماعيل شلبي ظل وفيا لمحيطه وبيئته الأندلسية التي تربى وترعرع بين أحضانها، وأن الأندلسيين يصورون طبعهم، ويصفون طبيعة بلادهم التي نشأوا فيها، وصفا صادقا، مستخدمين في ذلك أسلوبا سهلا رقيقا، واضح المعاني، وموظفين صورهم من مشاهدتهم وتجاربهم. يقول الأستاذ حامد عبد القادر:"إن ينابيع الصور التي يستعملها الشاعر في أسلوبه ترجع إلى مشاهداته وتجاربه الخاصة، أو إلى النقل عن غيره... وقد يكون الشاعر ممتازا بالقدرة على تركيب الصور القديمة، والتأليف بينها تأليفا جديدا لتكون صورة مبتكرة جديدة"[9].

ونستشف إذن بأن فكرة الأخذ عن الغير، سواء كان مشرقيا أو مغربيا ليست عيبا منهجيا بشرط، التطوير في شكل هذه المادة المأخوذة، وإظهارها بمظهر جديد، كما أنه ليس عيبا إذا مضت الحضارة الأندلسية تؤسس وتبني نفسها على قوالب مستعارة من حضارة الشرق لدرجة التقليد والاحتداء، ذلك امتداد للوطن الأم، وإذا كان الشعراء الأندلسيون مقلدون للشعراء المشارقة، فهذا يرجع لعجزهم عن الابتكار والابداع، وإنما هو إحساسهم بالانتماء إلى الأصل والارتباط به، كما أن بعدهم عن منابع العربية، يقوي فيهم حبهم للثقافة المشرقية التي كانوا يرون فيها أنفسهم وعروبتهم. إلا أنهم، ورغم هذا الإعجاب الواضح بالثقافة المشرقية والاستفادة منها، فقد تميز شعرهم بانتقاء الأفكار، واختيار الأجمل منها حسب ما يوافق هواهم ومشاربهم، كما أنهم فعلا جددوا في موضوعات الشعر الأندلسي، حيث وصفوا مظاهر العمران من قصور وبرك وتماثيل وغير ذلك، كما أنهم أضافوا إلى **فن الرثاء، ووسعوه بما أنشأوه في بكاء المدن، ورثاء المماليك وما قالوه على البديهة والارتجال، وما خلقوه من الموشحات والازجال**[10].

والموشحات والأزجال من الفنون الأصلية التي نشأت في الأندلس، وكان للطبيعة الأندلسية تأثير على الوشاحين والزجالين، كما أن الحالة الاجتماعية التي عرفتها بلاد الأندلس من ترف وبذخ وغناء أدت إلى نشأة هذا الفن الجديد الذي يعتمد على الغناء والموسيقى، يقول التجيبي في ذلك: "كنت بمدينة مالقة من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة، فاعتللت بها مديدة، انقطعت فيها عن التصرف ولزمت المنزل... وكنت إذا جن الليل اشتد سهري وخفقت حولي أوتار العيد والطنابير والمعازف من كل ناحية، واختلطت الأصوات بالغناء فكان ذلك شديدا علي..." [11].

---

[8]- المرجع نفسه، ص63.

[9]- د. جودت الركابي "في الأدب الأندلسي" دار المعارف بمصر، ط2، سنة 1960، ص67.

[10]- سعد اسماعيل شلبي "دراسات أدبية في الشعر الأندلسي" مرجع سابق، ص65.

[11]- د. شوقي ضيف "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" مرجع سابق، ص451.

ونشوء هذه الموشحات والأزجال في بلاد الأندلس، دليل على أن الشعراء الأندلسيين قادرون على التجديد والابتكار وليسوا عاجزين كما ظن البعض أو كما ادعى البعض الآخر بأنهم كانوا ينظرون إلى الحياة والفن، بعين شرقية، وأن الأندلسيين كانوا تلامذة لشعراء حلب، كما أنه لا يجب التناسي بأن الأدب كيفما كان نوعه لا يحق النظر إليه من زاوية ضيقة، بل يجب قبل إصدار الأحكام التروي والتمعن، كي لا تكون تلك الأحكام الصادرة في حق أي أدب، جائرة ومجحفة، وبعيدة عن الدقة والموضوعية التي يتطلبها أي بحث أدبي.

إن الشعر الأندلسي رغم كل ما قيل عنه : لا يمكن إنكار أصالته وابتكاره وتجديده وصولته، إذ أن الأندلسيين كانوا ينزعون إلى كل ما هو جديد ومبتكر، متأثرين في ذلك بالمحيط والبيئة التي يعيشون فيها، حتى كانت الطبيعة ذات أثر وعمق كبيرين على أنفسهم وانعكس هذا التأثر على أشعارهم، فجاءت جميلة عذبة تفيض بالعاطفة والإعجاب ببلادهم، لأن الشاعر الأندلسي استوحى عناصر شعره من الطبيعة التي تحيط به من كل جانب أو من جوانب نفسه.

ج- فـن الرثـاء :

لا يختلف الأندلسيون عن المشارقة في رثاء الميت، والتفجع عليه، والمغالاة في وصفه، ووصف الرزء به، فالأسلوب والتفكير واحد، والمعاني والتعابير متواطئة. وربما عرض شعراء الأندلس إلى الأحداث التي نزلت بالأمم الحالية فأبادتها، أو قوضت عروش ملوكها، وصرعت قرومها وأبطالها. وهم إنما يقصدون التأسية، بتعداد فواجع الدهر، ومصارع الرجال، وهذا قديم في الأدب العربي كما هو معروف.

ويستهلون مراثيهم بالحكم كالمشارقة، وحكمهم في الغالب ساذجة مبتذلة على حد تعبير زمرة من الدارسين، تعود في أكثرها على شكوى الدهر، وعدم الركون إلى الأيام. بيد أنهم فاقوا المشارقة **برثاء الممالك البائدة لما في نفوسهم من محبة صادقة لوطنهم**، وشغف عظيم منهم بجمال الطبيعة والعمران. فكان يشجوهم أن يروا ديارهم تسقط بلدا إثر بلد في أيدي الغرباء من غزاة ومكتسحين؛ فيبكون عليها ويتفجعون كما بكى ابن اللبانة على دولة العباديين، وابن عبدون على دولة بني الأفطس، عندما أزالهم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين؛ وكما **بكى أبو البقاء الرندي على مدن الأندلس بعد أن استردها النصارى، وأزعجوا عنها المسلمين.**

وفي هذه القصائد الثلاث لوعة صادقة، وتفجع أليم، ولاسيما **نونية الرندي**. فإن العاطفة الدينية زادتها روعة والتياعا. وفي هذه القصائد الثلاث تكاد تجتمع خصائص الرثاء في الشعر الأندلسي. فمن حكم ساذجة، وضرب أمثال إلى ذكر الشعوب السالفة التي أهانها الدهر، إلى إمعان في تعظيم الخطب حتى الاغراق. وإليك منتخبات منها تطلعك على ميزة الرثاء عندهم، ولاسيما رثاء الممالك.

قال ابن اللبانة يرثي دولة بني عباد، ويذكر خروج المعتمد من إشبيلية، وحمله إلى المغرب أسيرا، والناس قد حشروا بضفتي الوادي، يبكون على الملك المنكوب :

تبكي السماء بمزن رائح غاد، على البهاليل من أبناء عباد

على الجبال التي هدت قواعدها، وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
يا ضيف، أفقر بيت المكرمات فخذ في ضم رحلك، واجمع فضلة الزاد
ويا مؤمل واديهم ليسكنه، خف القطين، وجف الزرع بالوادي

وقال ابن عبدون يرثي دولة بني الأفطس :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر، فما البكاء على الأشباح والصور ؟
فلا يغرنك من دنياك نومتها، فما صناعة عينيها سوى السهر

وقال أبو البقاء يرثي الأندلس :

لكل شيء إذا ما تم نقصان، فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور، كما شاهدتها، دول، من سره زمن، ساءته أزمان

د- الشكوى والاستعطاف :

ويعد هذا النوع، أو يكاد يتصل بالرثاء لما فيه من بكاء على الماضي، وتألم من الحاضر. ويكاد يختص بطبقة الملوك والأمراء والوزراء، لما نالهم من النكبات والمحن. فهبطوا من بعد رفعة، وذلوا من بعد عزة، فمن ذلك قول ابن اللبانة في فخر الدولة بن المعتمد بن عباد، وقد رآه بعد سقوط دولتهم في سوق الصياغة ينفخ الفحم بقصبة الصائغ :

شكاتنا فيك يا فخر العلى عظمت، والرزء يعظم فيمن قدره عظما
طوقت من نائبات الدهر مخنقة، ضاقت عليك، وكم طوقتنا نعما
وعاد طوقك في دكان قارعة، من بعد ما كنت في قصر حكى إرما

وهم كالمشارقة يشوبون خمرياتهم بالفحش والمجون والاستخفاف بالدين. وألطفها ما جاء ممتزجا بألفاظ الطبيعة الناضرة، فإن فيه من العذوبة والخيال الشعري غير يسير. قال ابن خفاجة :

وأغيد في صدر الكلام لحسنه حلي، وفي صدر القصيد نسيب[12]

2- العلل الذاتية :

وهي تلك العلل التي تلتصق بالإنسان، أو هو يلتصق بها، وهي متعددة ومتلونة بتعدد الأهواء والمشارب، والإنسان الأندلسي قد عانى من علل ذاتية سببت له توترا داخليا[13] أدى إلى عدم الاستقرار النفسي عند هذا المفكر أو ذاك، قال أحدهم شاكيا وضعه مبديا قلقه بل ضعفه أمام ما تعرض له من علل :

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن طمعت تاقت وإلا استدلت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة فلما رأت صبري على الذل ذلت

والعلل الذاتية تتعدد وتتلون من حين لآخر، فالمفكر الأندلسي قد عانى من مرارة الهجران، ووجع الشكوى كما عانى من التعاسة، ومن الخوف، ومن الغربة، والحنين، كما هو أيضا قد أن من الفراق، ومن الفقد، ومن الظلم ومن المهانة، فضلا عن الحسد والوشاية، قال

---

[12]- بطرس البستاني، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، حياتهم – آثارهم – نقد آثارهم، دار الجيل، دار مارون عبود، ج3، ص49.
[13]- انظر : دراسات في الأدب الإسلامي والأموي، (الشعراء نقادا)، ص158.

(ابن حزم) : "ولا سيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتي به، واستهجانهم حسناته وتتبعهم سقطاته وعثراته..." قال (والد ابن الأبار) مدلا على ما كان الناس فيه :

جرت عادة الناس أن يسألوا عن الحال في كل خير وشر

فكل يقول بخير أنا وعند الحقيقة ضد الخبر

فقد كانت حال أهل الأندلس كذلك، يظهرون السعادة والواقع غير ذلك، فهم كما قال الشاعر المشرقي:

فريقان : منهم جازع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كبكب

أو كما قال الشاعر الأندلسي[14]:

تقسمهن السيف والحيف والبلى وشطت بنا عنها عصور وأزمان

كما اقتسمت أخذانهن يد النوى فهم للردى والبر والبحر إخوان

وإذا كانت هذه العلل قد تعددت فإنها كانت تمثل أرضا خصبة لقول الشعر خاصة، فكان شأن مفكري الأندلس مع عللهم الذاتية كشأن الشاعر المشرقي "الكميت" مع الهاشميات، تلك التي أبدع فيها مما حدا (بالفرزدق) إلى القول عنه : "لقد وجد آجرا وجصا فبنى..".

والفرزدق نفسه هو القائل : "وهل الشعر إلا في الخوف والرجاء وعند الخير والشر..؟".

إننا إذا بحثنا في ديوان الفكر الأندلسي سنجد أن معظمه قد دار حول الذات الأندلسية وما يتعلق بها، لاسيما إذا أخذنا منه ما يتعلق بما نحن بصدده، لوجدناه غالبا من حيث الكم، ودلالة الغلبة هنا تعني ما قد عاناه المفكر الأندلسي في حياته، وأنه قد استطاع أن يسخر موهبته للحالة النفسية التي كان يشعر أو قد شعر بها بغض النظر عن قيمة هذا الشعر من الناحية الفنية، أو تميزه من الناحية النقدية، فالحياة قد جعلت من ذلك الأديب معبرا عن مكنوناته بطريقة تلقائية قد تكون هذه الطريقة سطحية، وقد تكون أدوات التعبير فيها جيدة.

أقول : إذا كان الشعر تعبيرا عن الطوائف أو هو "فيض تلقائي لمشاعر قوية.." ، ومثله النثر، فإن المفكر الأندلسي قد سخر فكره ليكون مرآة عاكسة لما كان في دواخله أو مكنوناته، وهي مكنونات قد أصابها القلق والضجر، فكان ذلك العطاء صورة صادقة لما في النفس، أو لما كان ذلك المفكر يشعر به ؛ وهذا العطاء قد جعلنا وكأننا نعايش أولئك القوم بما هم فيه، فكان شأننا في ذلك كشأن (محمد بن يسير) الذي قال – مع اختلاف في المناسبة–:

حتى كأني قد شاهدت عصرهم وقد مضت دونهم من دهرهم حقب

إن الحياة الأندلسية لم تصف لأحد، وليس ذلك بغريب، فهذا شأن الدنيا بخاصة مع الإنسان المفكر،

وصاحب العقل في الدنيا أخو كدروإنما الصفو فيها للمجانين

قال الشاعر شاكيا حوله:

---

[14]- الشاعر أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج القسطالي، انظر ما كتب عنه في الدخيرة...

يا عمرو أين عمير من كدى يمن لقد هوت بك يا عمرو الرياح وبي
طول ارتحالي وأحظ غير طائلة وغيبة ناهزت عشرا من الحقب

ولأن علل أهل الأندلس الذاتية كثيرة ومتنوعة، البعض منها يذيب الأكباد.

3- العلل الاجتماعية :

لقد تطرقنا آنفا من كثرة العلل التي أحاطت بالمفكر الأندلسي، إلا أنه لم ينس مجتمعه، فقد تأثر بما حصل ويحصل لبلاده من مضايقة الأعداء، بل مهاجمتهم لها، ومضايقة أهلها بين الفينة والأخرى، وفوق ذلك ما يحصل فيها من فتن داخلية "لم يعدم فيها حيف، ولا فروق فيها خوف، ولا تم سرور، ولا فقد محذور، مع تغير السيرة، وخرق الهيبة، واشتعال الفتنة، واعتلاء المعصية، وطعن الأمن، وحلول المخافة... ، وسواء أكانت تك الفتن داخلية أم خارجية، **فقد فقدت الأندلس** على إثرها الكثير من **الفقهاء والعلماء**، فقتلوا أو تفرقوا، ومن بقي منهم أصيب هو وعامة الناس برعب وخوف شديدين، كما تأثر أيضا بما قد حصل أو يحصل لأهل بلاده من معاناة للجوع والعطش والخوف وعدم الأمن.

ونتيجة لما **حصل للأندلس وأهلها**، فقد شعر المفكر بمسؤوليته، فكان أدبه صدى لتلك النكبات الكبرى، أو هو صدى لمعظمها، وذلك منذ قيام الدولة الإسلامية إلى نهايتها، فقد سجل في أدبه قضايا العصرالتي من أهمها :

- **القضايا والهموم الداخلية.**
- **سقوط المدن والممالك الأندلسية.**
- **الضعف المتمكن من عامة الناس، والاستصراخ وطلب العون من الآخرين.**

إننا لو بحثنا عن تلك القضايا التي تناولها المفكر الأندلسي في أدبه، لوجدنا أن الدافع الأساس الذي دفعه لتناولها كان متمثلا في عاطفة حب الوطن "وقد تجلت في أروع صورها" في شعر **رثاء المدن والمماليك**، كما تجلت في تلك العاطفة الحزينة الباكية الناقمة أحيانا في بقية ما حاول تصويره من أمور أخرى كانت تمثل عللا داخلية في نفس هذا الأديب أو ذاك.

وإذا كان المفكر الأندلسي قد عبر عن تلك الأوضاع التي أحاطت به، وببلاده ومن سكن فيها عبر أدب اتسم بالبساطة في القول، والوضوح، والتفاعل مع الحدث؛ فإن ذلك قد جاء من واقع صدقه وتفاعله مع مجتمع شعر بأنات وويلات لازمته قرونا طوال أدت في النهاية إلى نهايته:

أيا أسفي على عدم الهجوع وفقدان الأحبة والربوع
يشق علي عن أهلي نزوحي ويغلبني إلى وطني نزوعي
فكم أبكي الديار وساكنيها بطرف مسعد ودم هموع

أقول إذا كان المفكر الأندلسي قد شكا في أدبه ما حل ببلاده وأهلها، فإن ذلك قد جاء من قبيل التفاعل مع ما حوله، فإذا كانت البيئة الأندلسية قد أسهمت في تكوين شخصية المفكر، وذلك بما غرست فيها من إحساس بالجمال وميل للأدب، فإنها أيضا قد غرست فيها روح التفاعل مع الأحداث المحيطة، تلك التي مثلت هما حقيقيا عانى منه كما عانت منه أمته

في تلك الجزيرة (المنكوبة) أو (الجزيرة المهتضمة) التي كان لأهلها "بين زمان الفتح وما بعده وقائع في الكفار شفت الصدور من أمراضها، ووفت النفوس بأغراضها، واستولت على ما كان لملة الكفر من جواهرها وأعراضها، ثم وقع الاختلاف بعد ذلك الائتلاف، فعصفت ريح العدو والحروب سجال وأعيى العلاج حكماء الرجال، **فصار أهل الأندلس يتذكرون موسى وطارقا ومن بعدهما من ملوك الأندلس الذين راعت العدو الكافر منهم طوارق...**".

ألا أيها القلب المصرح بالوجد أمالك من بادئ الصبابة من بد

وهل من سلو يرتجى لمتيم لو لوعة الصادي وروعة ذي الصد

يحن إلى نجد، وهيهات حرمت صروف الليالي أن يعود إلى نجد

إن تلك القضايا كانت تمثل عللا داخلية في نفس المفكر الأندلسي، والتي لم يجد بدا من التعبير عنها بواسطة فكره وأدبه، ذلك الذي نجد فيه صورا للقضايا الآتية، والتي تمثل في نظرنا المتواضع أهم قضايا العصر :

3-1-القضايا الداخلية :

لقد كثرت الهموم الداخلية، تلك التي عانى منها المفكر الأندلسي سواء أكان شاعرا أم ناثرا، ولذلك نجده قد سجل تلك الهموم عبر فكره، إلا أن المؤرخ قد كان أكثر تعايشا مع الواقع وأحداثه، ذلك لأن تاريخه يقوم أساسا على تسجيل الحدث، ومع ذلك فقد حاول أن يلبس هذا الحدث أو ذاك ثوبا أدبيا بليغا.

إننا لو قرأنا تاريخ (ابن حيان) مثلا، أو المعجب في تلخيص أخبار المغرب (للمراكشي) ، أو البيان المغرب (للمراكشي) ، أو المن بالإمامة (لابن صاحب الصلاة) أو النفح (للمقري) لوجدنا أنها قد حوت الكثير من الأحاديث التي دارت حول الأحداث الداخلية، وهي أحاديث مدعمة بأقوال أدباء ومفكرين من الأندلس، يأتي بها المؤرخ للدلالة على صدقه، وأن تأريخه لا يقوم على مسايرة الحدث حسب، بل يحوي نظرات شاملة لكل ما يدور حوله مع القاء بعض الضوء على حياة الشعب العامة والخاصة.

ولأن ما احتوته تلك المصادر يعد شافيا، فلسنا في حاجة لتكرار ما قدتم الحديث عنه، كما أن الكتب الحديثة قد تحدثت هي أيضا عن تلك الأحداث، فكانت مكملة لما حوته المصادر من تسجيل لكل حدث وقع على مسرح الأندلس أرضا وناسا :

لمصاب أندلس تصوب الأدمع ولما جرى فيه تذوب الأضلع

إن المفكر الأندلسي بشكل عام قد تحدث في فكره عن مجموعة أمور داخلية ارتبطت بالأرض، **وبالناس**، مثل الحديث عن الفقر والمجاعة والقحط والغرق من السيول... وهكذا دواليك، والفتن الداخلية كفتنة (هيج الربض) و(الفتنة البربرية)، وأيضا عن الاضطراب السياسي في **عهد ملوك الطوائف**، كما تحدثوا عن تكالب العدو على **الأندلس أرضا وناسا**، وما أصاب الناس من الحيرة والقلق والاضطراب، الأمر الذي دفعهم للقول بنقد الحكام والمجتمع على حد سواء، مما أدى إلى ظهور ظاهرة من الممكن أن نطلق عليها "النقمة على المجتمع" بكل ما

تحمله كلمة (النقمة) من معادن عديدة، وذلك لأن الهجاء في الأندلس اتجه للنقد الاجتماعي ففيه "تشاؤم وسخط على الحياة والمجتمع والناس جميعا...".

إننا لو تتبعنا ما قاله المفكر الأندلسي حيال مجتمعه، وما أظهره من نقمة عليه لطال بنا المسار، ولأصبح البحث تكرارا لما قد قيل أو سجل، ولهذا، فإن الإشارة هنا تكفينا للدلالة على ما نهدف إليه، على أنه ينبغي أن نعرف أن العلل الداخلية قد تعددت، بل زادت على قدرة الأديب المفكر مما جعله ينفر عنها بعيدا متخذا من الطبيعة مكانا للهروب من واقع مرير عاشه هو وعاشه مجتمعه، بل عاشته أمته كلها وأرضه التي يعيش عليها، على أن بعضهم قد أخذ يشير في فكره في بعض الأحايين إلى وجوب التجمل، يقول الشاعر:

إذا نزلت بساحتك الرزايا فلا تجزع لها جزع الصبي
فإن لكل نازلة عزاء بما قد كان من فقد النبي

وآخر دعا للتسليم فقال:

ليس للمرء اختيار في الذي يتمنى من حراك وسكون
إنما الأمر لرب واحد إن يشأ قال له : كن فيكون

3-2- سقوط المدن والممالك الأندلسية :

وتمثل هذه القضية بالنسبة للأندلسيين علة العلل، فبسببها شعروا بالقلق والخوف، وبسببها شردوا من بلادهم، فتغربوا عن أرض تربوا في أحضانها، وبسببها فقدوا الأهل والأحباب، وبسببها عمت الفوضى، وكثرت الاضطرابات مما جعل المفكر الأندلسي يقف حائرا مضطربا أمام **تساقط المدن** في يد الأعداء، بل وزوال بعض الممالك فما كان منه إلا أن بكى في فكره بكاء مرا، "بكاها من يبكي على فراق وطن أحبه وفتن بجمال طبيعته ورخاء أيامه، فبكى (ابن اللبانة) دولة بني عباد، و(ابن عبدون) دولة بني الأفطس عندما أزالهما (ابن تاشفين)، وبكى (**أبو البقاء الرندي**) الأندلس بأسرها كما أشرنا سابقا، ولأهمية هذه القضية، فإن غالبية الباحثين القديم منهم والجديد قد تطرق لها، ولذا نجد **رثاء المدن والممالك** منثورا في المصادر القديمة، والمراجع الحديثة، ولأنه كذلك فلسنا في حاجة لتكرار ما قد كتب، وتكفينا الإشارة إلى أن هذه القضية من العلل التي عانى منها الأندلسيون خاصتهم وعامتهم...

3-3- الاستصراخ وطلب العون :

وتعد هذه القضية نتيجة حتمية لا غبار عليها، لما كان الأندلسي قد شعر ويشعر به من ضعف بلاده وما حصل ويحصل فيها.

- **فقد تساقطت المدن واحدة تلو الأخرى، وإن كانت الحروب سجالا، إلا أن العدو قد استطاع إضعاف جند المسلمين في البلاد رغم مواجهتهم له في معظم الميادين.**
- **وقد سفكت الدماء وانتهكت الأعراض، ونبهت الأموال.**
- **وقد عطلت الشعائر الدينية، وحولت المساجد إلى كنائس.**

– وقد هرب الحي من الناس، بل وشرد، وما عاد يعرف له موطنا ونتيجة لذلك كان المفكر الأندلسي في حيرة من أمره، فمنهم القلق المضطرب الذي لم يعد يعرف كيف يتصرف مع هذا الوضع، فأخذ يتساءل ويسأل نفسه، وكأنه أصبح صوتا بلا صدى:

كم نكروا من معلم، كم دمروا　　من معشر، كم غيروا من مشعر !!
كم أبطلوا سنن النبي وعطلوا　　من حيلة التوحيد صهوة منبر !!

ثم قال :

لو صور الإسلام شخصا جاءكم　　عمدا بنفس الوامق المتحير
لو أنه نادى النصير لخصكم　　ودعاكمو : يا أسرتي يا معشري !

ولأن الأندلس أصبحت في هذه الحال من الضعف، وتكالب الأعداء عليها، فما كان منهم إلا التوجه بطلب النجدة من الآخرين بعد الله.

يا إلهي وأنت تعلم حالي　　لا تذرني شماتة الأعداء

وبهذا نصل إلى الفئة الثالثة، تلك التي اتجهت للاستغاثة وطلب العون لنجدة الأندلس، فقال الشاعر مستغيثا بالله ثم بصاحب أفريقية أبي زكرياء ابن أبي حفص:

أدرك بخليل الله أندلسا　　إن السبيل إلى منجاتها درسا

ثم قال مخاطبا الأمير في آخر القصيدة :

فاملأ هنيئا لك التأييد ساحتها　　جردا سلاهب أو خطية دعسا
واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه　　لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى

ولأن الخطر محدق، والضياع مؤكد، فلم "يزل **أهل الأندلس** بعد ظهور النصارى – دمرهم الله تعالى – على كثير منها يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لأخذ الثأر بالنظم والنثر... ، وإذا كان أهل الأندلس قد طلبوا العون من الآخرين خاصة أصحاب بر العدوة، إلا أنهم كثيرا ما يواجهون "بكسر الخواطر"، فلجأوا إلى رب كريم داعين إياه بقولهم : "اللهم اعطف علينا قلوب العباد، اللهم بث لنا الحمية في البلاد، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد، اللهم انصرنا على أعدائك، بأحبابك وأوليائك يا خير الناصرين، اللهم أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين".

ويعتبر شعر الجهاد، والدعوة له قد بلغت ذروتها في آواخر الدولة الإسلامية في الأندلس مما جعل البعض من الباحثين يركز الضوء عليها، بل إن هناك كتبا قد رصدت هذا الشعر خاصة في العصر الموحدي.

3-4- العلل الفكرية :

لقد عانى الأندلسيون من احتقار المشارقة لكل شيء يأتي من المغرب، كما عانى الأندلسيون أنفسهم من احتقار كل شيء أمام كل مشرقي حتى نتاجهم مما أدى إلى وجود ضعف نفسي تمكن منهم عندما يقفون أمام المشارقة، ولذا نجد أن الأديب الأندلسي (ابن حزم) قد قال متضجرا من هذا الوضع:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة　　ولكن عيبي أن مطلعي الغرب

ولو أنني من جانب الشرق طالع لجد على ما ضاع من ذكري النهب

وعلة ابن حزم هي علة ذاتية، شكا فيها قلة الاهتمام به وبعلمه في بلاده، إلا أن هناك من المفكرين الأندلسيين من انطلق في شكواه منطلقا آخر، إذ كانت شكواه صدى لما شعر به هو والمفكرون الآخرون من عدم الاهتمام بالنتاج الفكري المحلي، وأنه إذا كانت هناك بعض الاهتمامات فلا تقاس بالاهتمام الذي يحظى به الفكر الوافد من المشرق، قال أبو الوليد الحميري : "وأما أشعار أهل الشرق فقد كثر الوقوف عليها، والنظر إليها حتى ما تميل نحوها النفوس... ثم قال : "ولا أحوج إليها بما أذكره للأندلسيين من النثر المبتدع، والنظم المخترع...".

وقال (ابن بسام) متضجرا هو الآخر من اهتمام الأندلسيين بأدب المشارقة وترك ما هو في بلادهم : إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق،..." ثم قال مستغربا ترك ما هو لديهم من نتاج فكري : "وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة مرمى القصية ومناخ الرذية، لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد، فغاظني منهم ذلك، وانفت مما هنالك...".

وقال (ابن طلحة) مخاطبا جماعة في محفل : "تقيمون القيامة لحبيب والبحتري والمتنبي وفي عصركم من يهتدي إلى ما لم يهتدوا إليه؟...".

وكانت شكاوي الحميري وابن بسام وابن طلحة قد آتت أكلها، فقد ظهر في الأندلس أدب فكر رفيع عبر عن ذواتهم، بل زاحم أدب المشرق، وأثر في الغرب مما جعل الشقندي يقول متباهيا من فضل بر العدوة على بلاده : "الحمد لله الذي جعل لمن يفخر بجزيرة الأندلس أن يتكلم ملء فيه، ويطنب ما شاء فلا يجد من يعترض عليه ولا من يثنيه، إذ لا يقال للنهار : يا مظلم، ولا للوجه الحسن : يا قبيح...

فكانوا بهذا الإنشطار يمثلون قمة القلق والحزن، بل إنهم يمثلون عللا أخرى لمن يقرأ عنهم فقد تتمكن الرحمة منه، وقد يتغلب عليه اللوم، فيتجه لوم أولئك المتخالذين.

4- تركيـــب :

وصفوة القول، شغف أهل الأندلس بالشعر كما شغف به المشارقة، فنقشوه على جدران قصورهم ومنازلهم، وجعلوه سلوى خلواتهم ومحافلهم. وأقبل على نظمه الرجال والنساء، فمن الرجال نذكر على سبيل المثال لا الحصر المعتمد ابن عباد، ابن زيدون، ابن شهيد، ابن خفاجة، ابن هانئ، وغيرهم كثير، ومن النساء كادت الشواعر تضاهي في العدد الشعراء، وفيهن طبقة من المحسنات البارعات كولادة بنت المستكفي، وتلميذتها مهجة القرطبية، وحمدة بنت زياد، خنساء المغرب، وحفصة بنت الحاج الركونية، وعائشة بنت أحمد القرطبية، ونزهون القلاعية الغرناطية. وجميعهن مشهورات بالجمال والظرف، إلا عائشة فقد استغنت بالفهم والأدب والفصاحة، دون نسيان دعجاء وأخريات، ونبغ شعراء من الملوك، والوزراء، والأطباء،

والفلاسفة، والفقهاء، فشاع الشعر في صقع الأندلس شيوعا عظيما، ولاكته الأفواه من كل جانب، وأصبح الملوك لا يستوزرون غير الشعراء...

وسلطة الفقهاء بالأندلس جعلت زمرة من الشعراء دريئة للويلات، ولا طالما نكب الشاعر لأخلاقه أو لآرائه، كما جرى لابن هانئ، فقد نفاه أمير اشبيلية خوفا من الفقهاء والعامة، لأنهم اتهموه بمذهب الفلاسفة، وفسقوه لخلاعته.

ومن ذلك، فالشاعر الأندلسي كان رفيع المنزلة، ويحظى بقيمة قصوى، لمكانة الوزير الشاعر في دولته. ثم ولع الأندلسيين بالشعر، وإقبال طبقاتهم على نظمه والتفن